﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 99 - 100]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من ردِّ البصر والاستغفار إلى ردِّ الأهل والاستبصار

بعد حديث الآيات السّابقة عن مجيءِ البشير وإلقاء القميص على وجه يعقوب ﷺ، واستغفاره لأبنائه، انتقل السّياق إلى مشهدٍ جديدٍ من مشاهد القصَّة، وهو مشهد الانتقال إلى مصر ودخولهم على يوسف ﷺ في عزِّ سلطانه وبهاء ملكه، وقد تحقَّقت رؤياه الَّتي ذَكَرها لأبيه يوم أن كان طفلًا صغيرًا، فاجتمع شملُهم بعد تفرُّقٍ وحلَّ بهم الأُنس بعد الحُزن والكَدَر، واللّه غالب على أمره.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَاوَىٰٓ﴾: أصلُ (أوى) يدلُّ على التَّجَمُّعُ. قالَ الخَليلُ: يُقالُ: أوَى الرَّجُلُ إلى مَنْزِلِه وآوَى غَيْرَهُ أويًّا وإيواءً[1]. والإيواءُ: جعلُ الغَيْر آويًا؛ أيْ: راجعًا إلى مَكانه حَيْثُ فارَقَ، فيؤول مَعْناهُ إلى الحِفْظِ والرِّعايَةِ[2]. والمَأْوَى: مَكانُ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْوَى إلَيْهِ لَيْلًا أوْ نَهارًا. والتَّأوّي: التَّجَمُّعُ، يُقالُ: تَأوَّتِ الطَّيْرُ: إذا انْضَمَّ بَعْضُها إلى بَعْضٍ[3]. والمُرادُ بالإيواء في الآية: الضَّمُّ والانحيازُ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أوى).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/320.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أوى).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/320.

2) ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾: أصلُ (عرش) يَدُلُّ على ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ مَبْنِيٍّ، يُقال: عَرَشْتُ الشَّيْءَ وعَرَّشْتُهُ، أعْرُشُهُ، تَعْرِيشًا؛ أيْ: رَفَعْتُهُ، ومِنْهُ العَرِيشُ، وهو: بِناءٌ يُرْفَعُ يُسْتَظَلُّ بِهِ[1]؛ وسمّي مجلس السّلطان عَرْشًا اعتبارًا بعُلوّه[2]، والعَرْش: اسْمٌ لِعالَمٍ يُحيطُ بِجَميعِ السَّماواتِ، سُمّي عَرْشًا لأنّه دالٌّ على عَظَمَةِ اللّه تَعالَى كما يَدُلُّ العَرْشُ على أنَّ صاحِبَهُ من المُلوكِ. والمقصود بالعرش في الآية: سَريرٌ لِلْقُعودِ فيَكونُ مُرْتَفِعًا، وفيهِ سَعَةٌ تُمَكِّنُ الجالِسَ مِنَ الاتِّكاءِ[3].

3) ﴿وَخَرُّواْ﴾: أصلُ (خرّ): أصْلٌ واحِدٌ، وهو اضْطِرابٌ وسُقوطٌ مَعَ صَوْتٍ. فالخَريرُ: صَوت الماء والرّيح والعُقاب وغير ذلك ممّا يسقط من عُلوّ[4]. وخَرَّ للّه ساجِدًا يَخِرُّ خُرورًا؛ أيْ: سَقَطَ سقوطًا يُسمَعُ منه خَريرٌ[5]. والمُراد بالخُرورِ في الآية: الهويُّ من عُلوٍّ إلى الأرْضِ خضوعًا.

4) ﴿سُجَّدًا﴾: أصلُ (سجد) أصلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ يَدُلُّ على تَطامُنٍ وذُلٍّ. يُقالُ سَجَدَ، إذا تَطامَنَ. وكُلُّ ما ذَلَّ فقَدْ سَجَدَ. وأسْجَدَ الرجلُ إذا طَأطَأ رأسَهُ وانحَنى، وسَجَدَ إذا وضعَ جَبهتَهَ بِالأرْضِ[6]. وجعل ذلك عبارة عن التّذلّل للّه وعبادته، وهو عامٌّ في الإنسان، والحيوانات، والجمادات، وذلك ضربان: سجود باختيار، وليس ذلك إلّا للإنسان، وبه يستحقّ الثّواب، نحو قوله: ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ ۩ ٦٢﴾ [النّجم: 62]. وسجود تسخير، وهو للإنسان، والحيوانات، والنّبات، وعلى ذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعًا وَكَرۡهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۩ ١٥﴾ [الرّعد: 15][7]. والمَساجِدُ: السُّجودُ ومَواضِعُه من الجَسَدِ والأرْضِ، الواحِدُ: مَسْجِدٌ[8]. والإسجاد: إدامة النّظر مَعَ سُكون[9]، والمقصود بالسّجود في الآية: وضْعُ الجَبْهَةِ على الأرْضِ بقصد التَّحية، إذ كان السُّجودُ تَحيَّةَ المُلوكِ وأضْرابِهِمْ[10].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عرش).
(2) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 335، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (عرش).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/56، و30/249.
(4) ابن سيدَه، المُحكَم، والرّاغب، المُفردات: (خرّ).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خرّ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سجد).
(7) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (سجد).
(8) ابن سيدَه، المُحكَم: (سجد).
(9) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سجد).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/228.

5) ﴿تَأۡوِيلُ﴾: أصلُ الكلمَةِ: الإرْجاعُ، كَقَوْلِكَ: أوَّلَ الشَّيْءَ إلى أهْلِهِ؛ أيْ: أرْجَعَهُ ورَدَّهُ إلَيْهِم، والأوْلُ: الرُّجوعُ[1]. والمَآلُ: مُنْتَهَى الشَّيْءِ ومَرْجِعُهُ ومَصيرُهُ وعاقِبَتُهُ. وقيل: أصْلُهُ التَّأْويلُ مِن الأوَّلِ وهو مُبْتَدَأُ الشَّيْءِ، ومنه سُمّيَ التَّفْسيرُ تَأْويلًا؛ لأنّ فيه إرْجاع الكَلام إلى ما يَحْتَمِلُهُ مِنَ المَعاني، أو إرْجاعهُ إلى بِدايَتِهِ. ومِن مَعانيه أيضًا: التَّقْديرُ. التَّأويلُ: الإيضاحُ والبَيانُ والتَّفْسيرُ، يُقال: أوَّلَ الكَلامَ إذا أوْضَحَهُ وبَيَّنَ معناهُ. ويأْتي بِمعنى الصَّرْفِ والتَّغْيير، يُقال: أوَّلْتُهُ فتأوَّلَ؛ أيْ: صَرَفْتُهُ فانْصَرَفَ[2]. والمقصود بالتَّأويل في الآية: تَوْضيحُ ما خَفيَ تَفْسيرُه من مَقْصِدِ كَلامٍ أوْ فِعْلٍ.

6) ﴿نَّزَغَ﴾: أصلُ (نزغ) كَلِمَةٌ تَدُلُّ على إفْسادٍ بَيْنَ اثْنَيْن. ونَزَغَ بَيْنَ القَوْم: أفْسَدَ ذاتَ بَيْنِهِم[3]. والنَّزْغُ: النَّخْسُ، وحَقيقَتُهُ: مَسٌّ شَديدٌ لِلْجِلْدِ بِطَرَفِ عودٍ أوْ إصْبَعٍ، فهوَ مَصْدَرٌ، ويُسْتَعارُ لاتِّصالِ القوَّةِ الشَّيْطانيَّةِ بِخَواطِرِ الإنسانِ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وتَصْرِفُهُ عَنِ الخَيْرِ[4]. والنّزْغُ أيضًا: الكَلام الَّذي يُغري بَين النّاس ويُسلِّطُ بعضهم على بعضٍ[5]. والمقصود بالنَّزغ في الآية: إدْخالُ الفَسادِ في النَّفْسِ.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

مـفـارقـة أرضٍ مُجدبةٍ موحشة إلى أرض كريمة مُخصِبة

تُبيِّن الآياتُ مجيءَ يعقوب عليه السلام بجميع أهله وقت أن دخلوا على يوسف عليه السلام، وما جرى من ضمِّ أبويه، قال أكثر المُفسّرين: هو أبوه يعقوب وخالته (ليا) وكانت أمّه قد ماتت في نِفاس بنيامين، وقالَ: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾، قيل: المُراد بالدّخول الأوّل في قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أرض مصر، وذلك حين استقبلهم، ثم قال:

(1) الخليل، العين، الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أول).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (أول)، والجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 72.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزغ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/297.
(5) ابن سيدَه، المُحكَم، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (نزغ).

﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ يعني: البلد، وقيل: إنّه أراد بالدّخول الأوّل دخولهم مصر، وأراد بالدّخول الثّاني: الاستيطان بها؛ أيْ: ادخلوا مصر مستوطنين فيها إنْ شاءَ اللّه آمِنينَ، قيل: إن هذا الاستثناء عائد إلى الأمن لا إلى الدّخول، والمعنى: ادخلوا مصر آمنين إن شاء اللّه، وقيل: إنه عائد إلى الدّخول، فعلى هذا يكون قد قال ذلك لهم قبل أن يدخلوا مصر. ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ يعني: على السّرير الّذي كان يجلس عليه يوسف، والرّفع: النّقل إلى عُلوٍّ، ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾، يعني يعقوب وخالته وإخوته، وكانت تحية النّاس يومئذ السّجود، وهو الانحناء والتّواضع ولم يُرد به حقيقة السّجود من وضع الجبهة على الأرض على سبيل العبادة، وقال يوسف عندما رأى ذلك: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ﴾، يعني هذا تصديق الرّؤيا الّتي رأيتُ في حال الصّغر، ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ يعني: في اليقظة، وقوله: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ يعني أنعم عليّ، يُقال: أحسن بي وإليّ بمعنًى واحد، ﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ إنّما ذكر إنعام اللّه عليه في إخراجه مِنَ السّجن وإن كان الجُبُّ أصعب منه استعمالًا للأدب والكرم لئلّا يخجل إخوته بعد أن قال لهم: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [يوسف: 92] ولأنّ نعمة اللّه عليه في إخراجه من السّجن كانت أعظم من إخراجه من الجُبّ، وسبب ذلك أن خروجه من الجُبّ كان سببًا لحصوله في العبوديّة والرّق وخروجه من السّجن كان سببًا لوصوله إلى المُلك، وقيل: إنّ دخوله الجُبّ كان لحسد إخوته، ودخوله السّجن كان لزوال التّهمة عنه، وكان ذلك من أعظم نعمه عليه، ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ يعني: من البادية، وأصل البدو هو البسيط من الأرض يبدو الشّخص فيه من بُعْدٍ، يعني: يظهر، والبدو خلاف الحَضَر، وكان يعقوب وأولاده أصحاب ماشية فسكنوا البادية، ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾، يعني: أفسد ما بيننا بسبب الحسد، وأصل النّزغ دخولٌ في أمر لإفساده. ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ يعني أنّه تعالى ذو لطف عالم بدقائق الأمور وخفيّاتها"[1].

(1) الخازن، لُباب التَّأويل في معالم التَّنزيل: 2/556، وما بعدها.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الفاءِ الاختزاليَّة في: ﴿فَلَمَّا﴾:

الـقـرآنُ كـتـابُ اعتبارٍ لا كتابُ إخبارٍ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ تعقيبيَّةٌ دالَّة على السُّرعة، وهي عاطفة على محذوف تقديرُه: فرحل يعقوب ﷺ بأهله أجمعين، وساروا حتَّى نزلوا على يوسف ﷺ في أرض مصر، وفيها إرشادٌ إلى أنَّ القرآنَ هو كتابُ اعتبارٍ لا كتاب إخبار، حيث "طَوَى ذِكْرَ سَفَرِهم من بِلادِهم إلى دُخولِهم على يوسُفَ ﷺ إذْ لَيْسَ فيهِ مِنَ العِبَرِ شَيْءٌ"[1]، فإنَّ العبرةَ قد قصَّها القرآن وذَكَر أحداثَها، وحذفُ مثلِ هذه الجُمل لا يُؤثِّر في المعنى مطلقًا، وإنَّما يزيد من طلاوة النَّظم وحلاوته بحذف ما هو معلوم، كي لا يقع إطنابٌ وتكثيرٌ لا يريده القرآن.

دلالة استعمال ﴿فَلَمَّا﴾ الحينيَّة:

أعـظـمُ مشاهد الغائبين تكمُن فـي لـحـظـات اللِّقاء

﴿فَلَمَّا﴾ ظرفيَّة حينيَّة أو رابطة لدخول آل يعقوب جميعًا على يوسف بضمِّه أبويه ورفعهما على سرير ملكه، فأفادت ﴿فَلَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ وقت مجيئهم ودخولهم على يوسف ﷺ، فهي تصويرٌ للمشهدِ بوقت الدُّخول فالإيواء؛ فإنَّ أعظمَ ما يكون في مشاهد الغائبين عن أحبَّتهم يكمُنُ في لحظات اللِّقاء.

نكتةُ الإيجاز في ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ﴾:

الـقـرآنُ يطوي الأسفارَ ويُبقي مـا يـجـذب الأبصار

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ إيجازٌ بديعٌ، وهو إيجازُ قَصْرٍ، حيث ذَكَر دخولَهم على يوسف ﷺ مباشرةً، دون أن يذكر الإذن في الدُّخول، والمُراد: فلمّا وصلوا أرض مصر أُذن لهم بدخولها؛ فدخلوها مع استقبال يوسف ﷺ لهم أحسنَ استقبال، ونكتةُ ذلك بيانُ المقصد من الإيراد، دون العنايةِ بتفاصيلِه.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/54.

بلاغةُ حذفِ المضافِ في الآية:

الأمـــــورُ بـمـقـاصـدِهـا والأســـفـــارُ بمطالبِها

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ مجاز بالحذفِ، حيث إنَّ الدخولَ لا يكون على شخصِ يوسف ﷺ، بل على مجلسِه أو عرشِه، فحُذِفَ المضافُ وذُكر المضاف إليه - وهو يوسف ﷺ - لبيانِ أنَّه المقصودُ بالدُّخولِ، فهم أتوه هو من حيث هو، لا من حيث مَنصِبه، فحذْفُ المُضافِ مُرادٌ، فإنَّ النَّظر للمقصودِ، وتوجيه الأنظار للمطلوبِ، ولمّا كان الأمر كذلك، حصل الاستقرارُ، وتمَّ القرار لهم في تلك الأمصار.

فائدة جعل ﴿ءَاوَىٰٓ﴾ جواب ﴿فَلَمَّا﴾:

سـرعـةُ الإكـرامِ لونٌ من الإكرام

وجود الفاء الدّالَّة على السُّرعة بارتحال يعقوب ﷺ وأهله ودخولهم المباشر، والدّخول هو فعل الشَّرط لقولِه: ﴿فَلَمَّا﴾ الجزائيَّة الرّابطة، وجاء جوابُ الشَّرط ﴿ءَاوَىٰٓ﴾؛ أيْ: بمجرد دُخولهم آواهما، وهذا في غاية الإكرام والاعتراف بالجميل وتوقير الأبوَيْن ممّا كان له أكبر الأثر في سرعة لقائه بهما، وإنزالهما المنزلة اللّائقة بهما، وأدب الكبار كبير، وخُلق العظماء أعظم.

بلاغةُ استعمالِ الفعل ﴿ءَاوَىٰٓ﴾:

مـعـانـقـةٌ حـارَّةٌ، وإكـرامٌ لائقٌ

والمقصود بالإيواء في قوله تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ ليس فقط الضَّم، بل هو المعانقة الحارَّة والإكرام اللّائق، ولقاء القلوب والنُّفوس لقاء صادقًا، وفيه ضمٌّ بإحاطة وعناية وتقدير وعطف، كما أنَّ الإيواء يدلُّ على رعايةٍ خاصَّةٍ، وعنايةٍ فائقةٍ.

فائدةُ حرف الجرِ في: ﴿إِلَيۡهِ﴾:

انـتـهـاءُ الـغـايـةِ إيواءٌ وارتواءٌ

استعمالُ حرفِ (إلى) في قوله تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ جاء دالًّا على انتهاءِ الغاية المكانيَّة؛ أيْ: ضمَّهما إلى المكان الَّذي هو فيه؛ فأنزلهما المنزلَ اللّائق بهما، وابتداءُ الغايةِ كان منذ دخولِهما، وإن قلنا إنّ الإيواء بدأ بإرسالِ القميصِ إلى أبيه فلن نتجاوز الحقيقة

بل هي الحقيقة، أو قد تدلُّ على المعيَّة؛ أيْ: جمعهما معه في مجلسِ عرشِه فأجلسهما عليه، والقول بدلالتِها على الغايةِ المكانيَّة هو الأوفق ببلاغةِ النَّظم، وظاهر الاستعمال.

سرُّ تغليب الأبوّة على الوالديَّة:

تغليبُ الأبِ في مقامِ التَّوقيرِ، والوالدة في مقامِ الإحسان

في قوله تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ غلَّب ذِكرَ الأبويَّة على الوالديَّة، إذ المقام هنا مقامُ توقيرٍ، وفي مقام التَّوقير والتَّشريع يُغلَّب ذكرُ الأب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء: 11]، وفي مقام الإحسان يُغلَّب ذِكر الوالدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [العنكبوت: 8]، وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤﴾ [لقمان: 14].

نكتة إفراد الضّمير في ﴿أَبَوَيۡهِ﴾:

لا يتساوى في نيلِ المقاماتِ مَن تفاوتت بينهم المقالات

أُفرد الضَّمير العائد على يوسف ﷺ دون أن يجمع فيعود على جميع الأبناء في قوله تعالى: ﴿أَبَوَيۡهِ﴾، فلم يَقُلْ: (أبويهم)؛ وذلك أنَّ الإكرامَ كان لأبويْه من حيث هما أبواه، وهذا عائدٌ في المآل إليه، ولو قال: (أبويْهم) لكان في ذلك تساوٍ بين يوسف ﷺ وإخوته في هذه الحيثيَّة، وأنَّى لهم ذلك الشَّرف المروم، والمكان المعلوم، ففيه تعظيمٌ وتشريفٌ لقَدْره ومكانته ما ليس لهم، وهو الأنسبُ بمقامِ العدالةِ، والأليق بهيبةِ الفضل.

دلالة عطف: ﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ﴾:

الدُّخولُ دخولان دخول الضّيافةِ، ودخول الاستقرار

عُطفت هذه الجملة ﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ على الجملة السّابقة؛ لاتفاقهما في الخبريَّة لفظًا ومعنًى، إلى جانب اتِّفاقِهما في الغرض العام، وهو بيانُ كيفيَّة استقبال يوسف لأبويْه وأهله، وإظهار حفاوة استقباله لهم، "وكأنّه ﷺ ضرب في المُلتقى خارج البلد مَضربًا،

فنزل فيه فدخلوا عليه فيه فآواهما إليه، ثم طلب منهم الدّخول في البلدة، فهناك دخولان: أحدهما دخولٌ عليه خارج البلدة، والثّاني دخول في البلدة، وقيل: إنّهم إنّما دخلوا ﷺ في مصر"[1]، وعلى هذا الأخير يكون دخولهم مصر هو في معنى الاستقرار؛ أيّ: دخلوا مصر باعتبارِهم ضيوفًا، ثم أُمروا بإدخالِهم دخول الاستقرار، وهذا الأقرب للصَّواب، ومجيءُ الفعل الواحد لمعنيَيْن باعتبارَيْن عادةٌ في القرآنِ معروفةٌ.

معنى الأمر في ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾:

الاستقرارُ في مصر بدايةُ مرحلةٍ جديدةٍ لبني يعقوب

الأمر في قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ للاستقرار والتَّمكُّن؛ والمعنى: تمكَّنوا منها واستقرّوا فيها واستوطنوها، قال الزّمخشريّ: "فإن قلتَ: ما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر؟ قلتُ: كأنّه حين استقبلهم نزل لهم في مضرب أو بيت ثَمَّ، فدخلوا عليه وضمّ إليه أبويْه، ثم قال لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، ولمّا دخل مصر، وجلس في مجلسه مستويًا على سريره، واجتمعوا إليه؛ أكرم أبويْه فرفعهما على السّرير"[2].

فنُّ الجناس: ﴿دَخَلُواْ﴾ ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾:

يكفيك أن تدخل على الكرام فتحظى بالإكرام

ورد الجناس بين فعلَيْن؛ أحدهما ماضٍ وهو ﴿دَخَلُواْ﴾ دلَّ على تحقُّق وحصول ووقوع الدُّخول، والثّاني ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ أمرٌ دالٌّ على مستقبل هذا الدُّخول، وهو جناسُ اشتقاق من مادَّة واحدة هي (دخل)، وهذا ممّا يُكسب الألفاظ دقّتها ورونقها، ويُكسبها جَرْسها الخاصَّ بها.

بلاغةُ الاحتراس في: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّـهُ﴾:

الإذنُ الحقيقيُّ لله تعالى

جملة ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ اعتراضيَّة دُعائيَّة لا محلَّ لها من الإعراب،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/57.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/57.

وهي "تَأَدُّبٌ مَعَ اللّه كالاِحْتِراسِ في الدُّعاءِ الوارِدِ بِصيغَةِ الأَمْرِ وهوَ لِمُجَرَّدِ التَّيَمُّنِ، فوُقوعُهُ في الوَعْدِ والعَزْمِ والدُّعاءِ بِمَنْزِلَةِ وُقوعِ التَّسْمِيَةِ في أَوَّلِ الكَلامِ"[1].

سرُّ إيثار لفظِ ﴿ءَامِنِينَ﴾ على (سالمين):

الأمنُ أصل كلّ متعة نفسيَّة ومادِيَّة

آثر النَّظم الكريم استعمالَ مُفردة الأمن دون السَّلامة في قوله تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾؛ وعليه فالأنسب في أمره بالدُّخول الدّعاء بالأمان، إذْ هو الأحقُّ بالاستعمال هنا، ومعناه وأساسه هو المُراد لما هم عليه، فتقييدُ "الدُّخولِ بِآمِنينَ وهوَ مَناطُ الدُّعاءِ، والأَمْنُ: حالَةُ اطْمِئْنانِ النَّفْسِ وراحَةِ البالِ وانْتِفاءِ الخَوْفِ من كُلِّ ما يُخافُ مِنْهُ، وهوَ يَجْمَعُ جَميعَ الأَحْوالِ الصّالِحَةِ لِلْإِنْسانِ مِنَ الصِّحَّةِ والرِّزْقِ ونَحْوِ ذَلِكَ"[2]، أمّا السَّلامة فهي التَّعرّي من الآفات الظّاهرة والباطنة[3].

دلالة الواو ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ﴾:

بعد أن تحظى بالأمن يأتي كمال النِّعم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ عاطفة هذه الجملة على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، قال البقاعيّ: ولمّا ذَكَر الأمن الّذي هو ملاك العافية الّتي بها لذّة العيش، أتبعه الرِّفعة الّتي بها كمال النّعيم، فقال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ﴾؛ أيْ: بعدما استقرّت بهم الدّار بدخول مصر مُستويين ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؛ أيْ: السّرير الرّفيع"[4].

سرُّ التَّعبير بالرَّفع لا بالإقعادِ:

الرَّفع تصويرٌ للواقعِ وإيماءٌ إلى الرِّفعة

آثر النَّظم استعمالَ (الرَّفع) وهو النَّقل إلى عُلوٍّ في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ﴾ دون أن يقول: (وأقعد)، إذْ فيه تقريبُ الشَّيْء وإذاعته وإظهاره، ولمّا كان المقامُ مقامَ تكريمٍ وتشريف؛ فقد أجلس يوسفُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/55.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/55.
(3) الرّاغب، المُفردات: (سلم).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/215.

ﷺ أبويْه على سرير المُلك بعد استوائهم جميعًا عليه، فالرَّفع على العرش تصويرٌ لأمرٍ محسوس، إذِ العرش مرتفعٌ، وهو كذلك إيماءٌ إلى أمرٍ معقول وهو الرِّفعة، وهذا لا يكون في القعود، إذ يكون عن قيامٍ، ولا يحمِل معنى الرِّفعة.

نكتة إظهار ما حقُّه الإضمار:

ورد التَّعبير بذكر الأبويْن في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ دون أن يقول: (ورفعهما) وحقُّهما الإضمار، وهذا من باب الإطناب زيادة في توضيح المعنى وتقريره في نفوس السّامعين مبالغة في إكرامهما وبيان علو شأنهما، وبيان أنَّ وصْلَ يوسف بهما بعد انقطاع عنهما كان من أجَلِّ النِّعم؛ ولذا أنزلهما المكان اللّائق بهما من التَّشريف والتّعظيم، ومن ثَمَّ لم يطوِ ذِكرهما.

من مظاهرِ الإكرامِ تَكرارُ الإفصاح

بلاغة حرف الاستعلاء: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾:

علا الشّيء عُلوًّا: استعلى عليه، واستقرَّ استواء المُطمئنّ المُتمكِّن لا القلق المتحرِّك، ولمّا كان المقام مقام تكريم وعلوٍّ؛ فقد عبَّر بحرف الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ المفيد للعُلوِّ الحقيقيّ تكريمًا لهما، وللإيماءِ إلى أنَّ رفعَهما هو رفعٌ ثابتٌ مستقرٌّ لا مؤقت زائل، كما أنَّ هذا الحرف أفاد معنى الفوقيَّة؛ أيْ: رفعهما فوق العرش، لإعطائهما صفة الفوقيَّة.

الرَّفع ثابتٌ لا يزول والرِّفعة ماكثةٌ لا تحول

معنى التَّعريف في لفظ ﴿ٱلْعَرْشِ﴾:

العرش هو سرير المُلك المُعدُّ لقعود يوسف ﷺ ويكون مرتفعًا؛ لأنَّ العرش كلُّ ما عُرِّش وكان صالحًا للجلوس، وفيه سَعة تُمكِّن الجالس مِنَ الاتكاء، والتَّعريف هنا للعهد، وهو عهد صريح لكون هذا العرش معهودًا لدى جميع الملوك.

عرشٌ جلس عليه أهله ومستحقّوه

دلالة الواو في: ﴿وَخَرُّواْ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ﴾ حاليَّة مبيِّنة للحالة الَّتي

السُّجود سجودُ توقيرٍ لا سجود عبادة

قام بها أبواه وإخوته، حيث سجدوا له، فلا تُفيد الواو هنا ترتيبًا؛ أيْ: لم تُرتِّب خُرورهم سجَّدًا بعد الرَّفع على العرش، قال ابن عاشور: "والأحْسَنُ أنْ تكونَ جُمْلَةُ ﴿وَخَرُّواْ﴾ حاليَّةً؛ لِأنَّ التَّحيَّةَ كانتْ قَبْلَ أنْ يَرْفَعَ أبَوَيْهِ على العَرْشِ، على أنَّ الواوَ لا تُفيدُ تَرْتيبًا. و﴿سُجَّدًا﴾ حالٌ مُبَيِّنَةٌ؛ لِأنَّ الخُرورَ يَقَعُ بِكَيْفيّاتٍ كَثيرَةٍ"[1].

بلاغةُ الاستعارةِ بـ (الخُرور):

تشبيه نزولهم للسّجودِ بخُرورِ المـــاءِ سـرعـةً وصوتًا

الخرور هو اضطراب وسقوط مع صوت، ومنه: خرير الماء؛ أيْ: صوته، وخرَّ الماء الأرض إذا شقَّها، وعُبِّر بقوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ﴾ دون أيِّ لفظٍ آخر، لأنَّ الخرورَ مُشعرٌ بالإتيان بالسُّجود على أكملِ الوجوه، وأجيبَ بأنَّ الخرورَ يُعنى به المرور فقط، وعلى كلٍّ فهو مبالغة في تكريمه وتعظيمه وإرجاع بعض حقِّه، كما أنَّ هذا الخرور يُصوِّر صوتَ الإسراعِ في السُّجود، وحالُهم كحال الماءِ السَّلِس، فخرورهم كخرورِ الماءِ، وفيه على ذلك استعارةٌ، حيث شبَّه نزولهم بالخُرور، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيّة.

براعةُ الإطناب في: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾:

الاحـــتراسُ عن الـتَّـعـبـيرِ بما يُشعر بالسُّجودِ الحقيقيِّ

أفاد الإطناب في قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ دون أن يُقال: (وسجدوا) احتراسًا من تشبيه خرورهم ساجدين بالسّاجدين حقيقةً لله تعالى، وأفاد كذلك التَّتميم للمبالغةِ في تصوير حالتهم الَّتي بُنيت على إكرامهم ليوسف عليه السلام، وتعظيمًا لقدره، ولو قيل: (سجدوا) لم تُفد معنًى زائدًا كما أفادته جملة: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ من إظهار عظم فضله وكرمه عليهم، خرّوا مُذعنين موقنين معترفين بما له من الفضل والمكانة عند الله تعالى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/55.

دلالة اللّامِ في: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ﴾:

نـهـايـةُ الـصّـابـر المحتسب إجلالٌ وإكـرامٌ وتبجيلٌ وإنعام

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ لام الأجْل، والمعنى: خرّوا من أجله سجَّدًا، وهو سجود التَّحيةِ والتَّعظيم والتَّبجيل، والشُّكر لله تعالى حيث جمع شملهم، وتاب عليهم، وغفر ذنوبهم، وأعزَّ جانبهم، ووسَّع بيوسف عليهم، فخصّوه بمزيد تكريم وتشريف وتقدير.

نكتة اختيارِ صيغة جمع ﴿سُجَّدًا﴾:

التّائب المُستغفر يُسارعُ إلى التّواضع بعد الكِبْر، والرِّضا بعد الحسد

اختير جمع ﴿سُجَّدًا﴾ بهذه الصّيغة دون أن يُقال: (ساجدين)، وهي حالٌ منصوبةٌ مبيِّنةٌ لهيئةِ سجود هؤلاء جميعًا، وجاءت بتشديد العين مبالغة لتُناسب الفعل ﴿وَخَرُّواْ﴾ الدّالّ على السّقوط من عُلوٍّ إلى أسفل، و﴿سُجَّدًا﴾ جمع تكسير يشمل أولي العلم وغيرَهم، وجمع السّلامة (ساجدين) يختصّ بأولي العلم، وإن وجد في غيرهم فبحكم الإلحاق والتَّشبيه، وأراد بجمع التّكسير هنا بيان هيئتهم لا دوام السّجود المُفاد من اسم الفاعل.

ونكتةُ اختيار هذه الصّيغة هو بيانُ سرعتهم في السُّجود وعدم الإباء، وأنَّهم في تمام الرِّضا وكامل الطُّمأنينة، وهو ما يدلُّ على أنَّهم تابوا عن استغفارٍ حقيقيٍّ، ولاذوا بالله تعالى بعد أن كان منهم ما كان.

دلالة الواو في: ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ﴾:

تأويل الرّؤيا هو وقوعها فعلًا وتحقُّقها واقعًا

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَـٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ عاطفة قوله ﷺ مُتحدِّثًا بنعمة الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَـٰيَ﴾ موجّهًا كلامه لأبيه يعقوب ﷺ، مشيرًا إلى أنَّ هذا السّجود هو تأويل الرّؤيا الّتي قصصتها عليك حال صغري، قد جعلها ربي حقًّا بعد مُضيّ الزّمن الطّويل، وهو ما يعكسُ فرحَه بما تحقَّق له، بسببِ نجاحه وفلاحه فيما قام به من صبرٍ واحتساب.

غرضُ النِّداءِ بأداةِ البعيد:

أدبٌ نبويّ في معرفة حقّ الأُبوّة

تستعمل (يا) النِّداء لنداء البعيد، أو مَنْ هو بمنزلة البعيد، وهو ما ذهب إليه كثير من العلماء، وقيل: إنَّها مشتركة بين نداء القريب والبعيد، ولكن غلب عليها نداء البعيد، وفي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ نُزِّل القريب وهو يعقوب ﷺ منزلة البعيد لرِفعة قدره وعِظم شأنه، فصار بُعد المنزلة كأنَّه بُعدٌ في المكان، ولهذا ناداه بما يستحقُّ من الشَّرف والتَّقدير.

سرُّ التَّلطُّفِ في قوله: (أبَتِ):

الذِّكريات تحضرُ في اللَّفظِ والتَّعبير اللَّطيف

التَّعبير بهذا اللَّفظ (أبَتِ) تلذُّذ له بالخطاب بالأُبوّة[1]. إلى جانب ما فيه من التَّعطُّف وتقدير المنزلة، ويومئ إلى سرٍّ بديعٍ، وهو أنَّ يوسف ﷺ لا يزال يستحضر الأيّام الخوالي الّتي كان يُنادي بها والدَه بهذا اللّطف والرِّقّة، فهو يعود بذاكرته إلى تلك الأيّام الّتي حُرِم منها من حنانِ الأبِ ورقّة التَّواصل.

نكتةُ الإشارة بالاسم ﴿هَـٰذَا﴾:

الله يُؤيّد أنبيائه حتَّى فيما يرونه منامًا

عبَّر يوسف ﷺ باسم الإشارة القريب ﴿هَـٰذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَـٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ حين ذكر لأبيه قصَّة رؤياه الَّتي رآها قبل ذلك وأعادها عليه هنا مرَّةً أخرى بعد تحقُّقِها، والأصل في الإشارة أن تكون لمحسوس أو ما يُنزَّل فيها غير المحسوس منزلة المحسوس، تعظيمًا لشأنها وتحقُّق وقوعها، فاستعمل اسم الإشارة القريب وسيلةً لكونها حاضرةً أمامه الآن يراها عيانًا.

سرُّ إيثار ﴿تَأۡوِيلُ﴾ على (تعبير):

رؤيا تحقَّقت كفَلَق الصُّبح

تأويل الكلام هو عاقبته وما يؤول إليه، وعبَّر الرّؤيا تعبيرًا إذا فسَّرها، فهو يأخذ فيها من وجهٍ إلى وجه، كعابر سيل الماء ينتقل بين

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/216.

أمواجه، وما وقع مع يوسف ﷺ في قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَـٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ يناسبه استعمال التَّأويل؛ لصيرورة رؤياه إلى ما آلت إليه وعاقبتها سجودهم له جميعًا كما رآها أوّلًا، فهو تأويلٌ باعتبارِ وقوعها الآن، لا تعبير باعتبار وقوعها مستقبلًا.

نكتة تعريف ﴿رُءۡيَـٰيَ﴾ بالإضافة:

رؤيا يوسف ﷺ جـرَتْ كـالسِّرِّ الخاصِّ بين الأب وابنه

أُضيف لفظ الرُّؤيا إلى ضمير المُتكلِّم في قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَـٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ فعُرِّفت بالإضافةِ لا بأل، ونكتةُ ذلك إرادةُ خصوصِ تلك الرُّؤيا، فهي رؤيا مخصوصة جرت بين الوالد والولد سرًّا، فكأنَّه يقول هذا تأويل رؤياي الّتي بيني وبينك، رؤياي الّتي أخفيتُها عن إخوتي وعن جميع النّاس، رؤياي الّتي انتظرنا رؤيتها تأويلًا واقعًا، فكان التَّعريف لا لمجرَّد تعريفِها، بل لاستحضارِها بأنَّها رؤيا خاصَّة بينهما.

فائدة ذِكْر قيد ﴿مِن قَبۡلُ﴾:

حـصـولُ المُـراد يُـنـسي طـولَ البِعاد

أتى النَّظمُ بقيد ﴿مِن قَبۡلُ﴾؛ للدّلالة على قصر الزّمن الَّذي رآها فيه[1]، وقوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ يجوز أن يتعلّق بـ ﴿رُءۡيَـٰيَ﴾؛ أي: تأويل رؤياي في ذلك الوقت، ويجوز أن يكون العامل فيه: ﴿تَأۡوِيلُ﴾؛ لأنَّ التَّأويل كان من حين وقوعها هكذا، والآن ظهر له، ويجوز أن يكون حالًا من: ﴿رُءۡيَـٰيَ﴾[2].

غرض التَّأكيد بحرف ﴿قَدۡ﴾:

رؤيـا صـادقـة تـحـقَّـقـت بعد حينٍ

قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ حالٌ من ﴿رُءۡيَـٰيَ﴾، ويجوز أن يكون مُستأنفًا، قال ابن عاشور: "ومَعْنَى ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ أنَّها كانتْ مِنَ الأخْبارِ الرَّمْزِيَّةِ الَّتي يُكاشِفُ بِها العَقْلُ الحَوادِثَ المُغَيَّبَةَ عَنِ الحِسِّ؛ أيْ: ولَم يَجْعَلْها باطِلًا من أضْغاثِ الأحْلامِ النّاشِئَةِ عَنْ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/216.
(2) ابن عادل الحنبليّ، اللّباب في علوم الكتاب: 11/215.

غَلَبَةِ الأَخْلاطِ الغِذائيَّةِ، أوِ الانْحِرافاتِ الدِّماغيَّةِ"[1]، فدلَّ التَّعبير بحرف التَّحقيق على تحقُّق رؤياه وصدقه فيها وحصولها.

نكتة إيثار ﴿رَبِّي﴾ على اسم الجلالة:

وصفُ الأحداثِ بالذَّمِّ أو المدح باعتبارِ مآلاتِها

التَّعبير بالرَّبِّ في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ فيه إشعار بالامتنان والرِّضا من صنيع ربِّه تعالى معه؛ لأنَّها مأخوذة من التَّربية والتَّعهُّد، فالله تعالى هو الَّذي ربّاه وتعهَّده في البئر والرِّق وغير ذلك، إلى أن أوصله إلى ما هو عليه، فالعبرة بمآلات الأحداثِ لا ببداياتها.

بلاغةُ استعمالِ الحقِّ دون الصِّدق:

الحقُّ هو صدق الوقوع ومطابقة الوقوع

جاء ذكرُ الحقِّ لا الصِّدق في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾، فرآها يوسف عليه السلام صدقًا مطابقًا للواقع في الحسِّ، وهو الحقُّ الثّابت، والحقُّ هو الأمر الثّابت بوقوعه؛ وهو ما حدث مع يوسف عليه السلام، إذْ رأى رؤياه في صغره، ثمّ تحقَّقت وصدقت رؤياه في كبره حتَّى وفد عليه أبوه وإخوته ساجدين، فذِكر الحقِّ يُراد به أمران: صدق الوقوع، ومطابقة الوقوع، فلو قال: (صدقًا) لكان إخبارًا عن تحقُّقها، أمّا في ذِكر الحقِّ فهو إخبارٌ عن الوقوع مطابقًا، وهذا أعظم في تحقُّقها، وأعجب في وجودِها.

دلالة الواو في: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾:

عطاءات الله مُتنوِّعة وأفضاله مُتجدِّدة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ على سابقتها؛ جاءت لبيان كرم الله تعالى عليه وامتنانه بهذه العطاءات، واتفقت الجملتان في الخبريَّة، ومن ثَمَّ كان الوَصْل بينهما إذْ هما موضِّحتان فضل الله تعالى على نبيِّه يوسف عليه السلام، وحراسته، ومدى حفظه له.

غرضُ التَّأكيدِ بـ(قَدْ): ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ﴾:

تُعدُّ (قَدْ) من الحروف الَّتي لا تدخل إلّا على الفعل؛ فتدخل على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/56.

الماضي لتُفيد التَّحقيق، أو التَّقريب، وعلى المضارع مفيدةً التّقليل أو التّكثير، وتكون للتّأكيد كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ﴾؛ لأنَّها منطقيَّة الأسباب، والمُراد: تأكيد تحقيق فضل الله تعالى على يوسف عليه السلام بعد أن حقَّق له رؤياه فصارت حقيقةً، بعد أن كانت مطويَّةً مع الزَّمن الطَّويل، إلى جانب ما حقَّقه له قبل ذلك وبعده.

نفسٌ زاد يقينُها وطمأنينتُها فأخرجتْ كلامَها مؤكَّدًا

دلالة الباءِ في: ﴿أَحْسَنَ بِيٓ﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ﴾ تحتملُ معاني عدَّةً:

الأوّل: أنّها بمعنى (إلى)، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: 77].

لطفُ اللهِ تعالى حاضرٌ في إحسانه، وإحسانه مُلابسٌ لعبادِه

الثّاني: أنَّها على بابها، والمفعول محذوف تقديره: وقد أحسن صنعه بي[1]، وتعديته بالباء أدلُّ على القُرب من المُحسِن.

الثّالث: أن يُضمَّن الفعل ﴿أَحْسَنَ﴾ معنى (لَطفَ)، كقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: 83][2].

الرّابع: باءُ ﴿بِيٓ﴾ لِلْمُلابَسَةِ؛ أيْ: جَعَلَ إحْسانَهُ مُلابِسًا لي.

والأوفق أن يُحمل معنى الباءِ على أصله، أو يُضمَّن معنى فعلٍ آخر، والقول بالتّناوب بعيدٌ، فلو أراد القرآن معنى (إلى) لذَكَرَها كما ذَكَرَها في آيةٍ أخرى، ودعوى التَّفنُّنِ من التَّفنُّنِ.

معنى ﴿إِذْ﴾ ودلالتها:

ألمُ الفراقِ عن الأحبَّة يُؤذِن بالافتراقِ بنزول الإحسانِ

﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ظرفٌ لقوله: ﴿أَحْسَنَ﴾، "وهيَ بِإضافَتِها إلى ذَلِكَ الفِعْلِ اقْتَضَتْ وُقوعَ إحْسانٍ غَيْرِ مَعْدودٍ، فإنَّ ذَلِكَ الوَقْتَ كان زَمَنَ ثُبوتِ بَراءَتِهِ مِنَ الإثْمِ الَّذي رَمَتْهُ بِهِ امْرَأةُ العَزيزِ وتِلْكَ مِنَّةٌ، وزَمَنَ خَلاصِهِ مِنَ السَّجْنِ فإنَّ السَّجْنَ عَذابُ النَّفْسِ بِالانْفِصالِ عَنِ الأصْدِقاءِ والأحِبَّةِ،

(1) العُكْبَريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/59.
(2) ابن عادل، اللّباب: 11/216.

وبِخُلْطَةِ مَنْ لا يُشاكِلونَهُ، وبِشَغْلِهِ عَنْ خَلْوَةِ نَفْسِهِ بِتَلَقّي الآدابِ الإلَهيَّةِ، وكان أيْضًا زَمَنَ إقْبالِ المُلك عَلَيْهِ. وأمّا مَجيءُ أهْلِهِ فزَوالُ ألَمِ نَفْسانيٍّ بِوَحْشَتِهِ في الانْفِرادِ عَنْ قَرابَتِهِ وشَوْقِهِ إلى لِقائِهِم، فأفْصَحَ بِذِكْرِ خُروجِهِ مِنَ السِّجْنِ، ومَجيءِ أهْلِهِ مِنَ البَدْوِ إلى حَيْثُ هوَ مَكينٌ قَويٌّ[1]".

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتها في الآية:

استدامة الشُّكر من رُقي النّفس ودأبها

وردت ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ دالَّةً على ابتداءِ الغاية، والمعنى: نجّاني من العبوديَّة، وجعل الملك مُطيعًا لي مفوِّضًا إليّ خزائن الأرض، وفي الاقتصار على التّحدّث بالخروج من السّجن على جلالة مُلكه، وفخامة شأنه من التّواضع، وتذكُّر ما سلف من الضّرّاء، استدامةً للشّكر، ما فيه من أدب النّفس الباهر، وفيه إشارة إلى النّعمة في الانطلاق من الحبس[2].

معنى التَّعريف في لفظ ﴿ٱلسِّجْنِ﴾:

الانـطـلاق من الحبس نعمة لا توازَن ومنَّةٌ لا تُقارَن

(أل) في لفظِ ﴿ٱلسِّجْنِ﴾ للعهد العِلميِّ أو الحضوريِّ، ومُرادٌ به السِّجن المعلوم لدى المصريّين جميعًا، وكان يُسمّى بسجن زاويره، والعهد العلميُّ أو الحضوريُّ ألّا يسبق للمعرَّف بـ (أل) ذِكرٌ البتَّة، لا صراحة ولا كناية، ولكن يُدرك المقصود من نظم الكلام، فلمّا ذُكر ﴿ٱلسِّجْنِ﴾ كانت (أل) هنا للعهد، وليس عهدًا صريحًا ولا كنائيًّا، ولكن نظم الكلام وسياقه قام بدوره في تحديد المُراد، فالمقصود ذِكر نعمة خروجه من ذلك السّجن.

براعةُ تقييد الإحسان بالإخراج من السّجنِ:

ذكر الجفاءِ وقتَ الصّفاءِ جفاءٌ

جاء ذِكر قيد الإحسان بقوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ دون أن يذكر الإخراجَ من البئر، وذلك أنَّه ﷺ أراد أن يكون مترفِّعًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/56.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/56.

عن "لوم إخوته، وتكريمًا لهم، وحفاظًا على حيائهم، ولأنَّ السّجن كان آخر المحن، وأخطر من السّقوط في الجبّ لما فيه من اتّهام بالنّساء، ولأنَّه بعد خروجه من البئر صار عبدًا لا ملكًا، وصار بعد السّجن ملكًا، فكان الإخراج منه أقرب إلى الإنعام الكامل"[1].

فلم يُرِد ﷺ ذِكرَ ما حدث بينه وبين إخوته في الجُبِّ، حتى لا ينبش الماضي بآلامه، ولأنَّهم في ساعة صفاء، وذِكْر الجفاءِ وقتَ الصفاءِ جفاءٌ، كما أنَّ إخراجه مِنَ السِّجن إلى المُلك الرِّفعة أوضح وأظهر.

دلالةُ العطفِ في: ﴿وَجَآءَ بِكُم﴾:

اجتماعُ النِّعمِ يغمرُ المحن ويُبدِّد النِّقَم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ عاطفةٌ مجيئَهم على بيان إحسان الله تعالى عليه في إخراجه مِنَ السِّجن، وجمعِهِ بهم مرَّةً أخرى؛ فجاء "قوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ معطوفًا على ما قبله تعديدًا لنعم الله تعالى؛ أيْ: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ﴾ ربّي حيث ﴿أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾، وأحسن بي أيضًا حيث يسَّر لكم أموركم، وجمعني بكم في مصر، بعد أن كنتم مقيمين في البادية في أرض كنعان بفلسطين"[2].

معنى الباء في قوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم﴾:

الباء لتعدية الفعل الفاعلِ في تصييرِ الفاعلِ مفعولًا

الباء في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم﴾ للتَّعدية لوجود الفعل اللّازم ﴿وَجَآءَ﴾، "وتُسَمّى باء النَّقْل أيْضًا، وهي المعاقبة للهمزة في تصيير الفاعِل مَفْعولًا، وأكْثر ما تُعدّي الفِعْل القاصِر، تَقول في ذهب زيد: ذهبتُ بزيد، وأذهبتُه"[3]، وفيها بيان نعم الله تعالى وإفضاله عليهم جميعًا، فقد امتنَّ عليه بإخراجه مِنَ السِّجن، ثمَّ أتمَّ النِّعمة بجمع شملهم، فانتقل أهله مِنَ الشَّقاوة والقحط والبؤس إلى السَّعادة والنَّعيم وسُكنى الحاضرة.

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/69.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/417.
(3) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 138.

دلالة إسناد المجيء ﴿وَجَآءَ بِكُم﴾:

الشُّكر لا يتحقَّق إلّا بذِكره سبحانه في كلِّ نعمةٍ وعند كلِّ منَّة

إسناد المجيء إلى الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ فيه اعترافٌ بمزيد فضل الله عليه، حيث لم يَقُلْ: (جئتم) تأدُّبًا بنسبة الفعل إلى القادر الفاعل الحقيقيِّ، وهو الله تعالى المُتفضِّل عليه، والمُتمِّم لنعمته عليهم جميعًا، حيث جعله يتقلَّب في صنوف النِّعم، ولم يحجب عنه لطفَه وتوفيقه منذ صغره إلى أن أخرجه مِنَ الجبِّ وخلَّصه مِنَ العبوديَّة والسِّجن، وجعله عزيزًا على أهل مصر، وإحضار أهله له في مقرِّه ومَسكَنه، فهو يُسند النِّعمَ إلى صاحبِها الحقيقيِّ ﷻ.

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها الإيمائيَّة:

الإيماءُ إلى النِّعمِ يُغني عن التَّصريح بها

حرفُ ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ لابتداء الغاية في المعنى؛ لأنَّ ابتداء مجيئهم كان من البادية الّتي يقطنونها؛ فالبدء كان من أرض كنعان، والانتهاء كان في مصر حيث مُستقَرّ يوسف عليه السلام وحاشيته وأبنائه، فذكر ﴿مِّنَ﴾ يُشير إلى الانتهاءِ، ففيه إيماءٌ لطيفٌ يُغني عن التَّصريح بذِكْر نعمةِ الانتقالِ من حالٍ إلى أخرى خيرٍ منها.

بلاغة التَّعبير بـ ﴿ٱلۡبَدۡوِ﴾ دون البادية:

الانتقالُ من حياةِ البدوِ إلى حياةِ الحَضَرِ نعمةٌ باديةٌ ومِنَّة حاضرةٌ

جاء التَّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ دون أن يُقال: (البادية)، فالبدو يشمل المكانَ والسُّكّان، فهو انتقالٌ من حياةِ البادية بجميع تفاصيلِها، إلى حياةِ الحاضرةِ بجميعِ تفاصيلِها، ولو قال: (البادية) لاقتصر على المكان، ففيه تفصيلٌ للنِّعم الّتي انتقلوا إليها، وإظْهارٌ لِتَمامِ النِّعْمَةِ، لِأَنَّ انْتِقالَ أَهْلِ الباديَةِ إلى المَدينَةِ ارْتِقاءٌ في الحَضارَةِ.

معنى حرف الجر في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾:

﴿مِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ لابتداء الغاية

كسابقتها، مُبيِّنة نعمة الله تعالى وفضله عليه، دالَّة على أنَّ جميع العطايا والمنح الَّتي أصابته ﷺ وتفضَّل الله عليه بها كان بدؤها وساوس الشّيطان، ونزغاته الَّتي أوقعها في قلوب إخوته يوم فعلوا به ما فعلوا، فما من محنة تحُلُّ بالعبد يرضى بها ويتصبَّر عليها إلّا صارت منحةً بدليل قوله لإخوته سابقًا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف: 90].

في البلايا عطايا، وفي المِحَن منحٌ

دلالة ذِكر ﴿أَن﴾ في: ﴿أَن نَّزَغَ﴾:

﴿أَن﴾ حرف مصدريٌّ ناصب للمضارع في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ للتّأكيد على وقوع النَّزغ من الشّيطان بين هؤلاء الإخوة، فلم يَقُلْ: (من بعد نزغ الشّيطان) فلو أُسقطت لذهب رونق النَّظم، وصار الكلام مُفكَّكًا لا ميزة له ولا روح فيه، كما أنَّها تُهيِّئ النَّكرة لتكون صالحةً للحديث عنها، كما يحذف معها الخبر لإغنائها عنه، وسياق كلام يوسف ﷺ استدعى وجود ﴿أَن﴾ تأكيدًا على أنَّ ما وقع بينه وبين إخوته السّبب الرّئيس فيه هو نزغ الشّيطان.

الشّيطان الرَّجيم خلف كلِّ بليَّة ووراء كلِّ ضحيّة

بلاغة التَّعبير بالنَّزغِ دون الوسوسة:

ما فعله إخوة يوسف ﷺ معه كان غضبًا منه وحسدًا عليه، حتَّى أحالوا مع أبيهم الحيل فأزعجوا أخاهم بما فعلوه معه من الضّرب والإهانة والإلقاء في الجُبِّ، بما لا تستطيع النَّفس السَّويَّة قبوله أو الرِّضا به، والّذي يناسبُ هذا المعنى هو لفظ النّزغ، فالنّزغ هو الإغواء بالوسوسة، وأكثر ما يكون عند الغضب، والنَّزغ يأتي بعد الوسوسة، فليس بالضَّرورةِ أن تتحقَّق الوسوسة بوقوعها، فكلّ نزغٍ وسوسة دون العكس، فالشّيطان يوسوس لكثيرين فلا يُفلح، أما النَّزغ فهو لفظ دالٌّ على تحقُّقِ الوسوسة.

النّزغُ ثمرةُ الوسوسة، والوسوسةُ مفتاحُه

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة ﴿نَزَغَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿نَّزَغَ﴾ استعارة، حيث شبّه نزغ الشّيطان لهؤلاء

الإخوة بتحريكهم إلى الغضب والانتقام من أخيهم يوسف بنخس الدّابّة؛ لإثارتها وتحريك قواها إلى السَّير السَّريع، ثم صرَّح بالمُشبَّه به وهو النَّزغ، واشتقَّ منه الفعل ﴿نَزَغَ﴾ بمعنى حرَّك بشِدَّة على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، والقرينة عقليَّة لاستحالة أن ينزغ الشّيطان حقيقة، وإنَّما يثير كوامن النَّفس بالغضب ليفسد بين الإخوة، ونكتةُ الاستعارةِ هي تصويرُ الشَّيطان براكبٍ يعلو الدّابة، وهو ينزغ بها ليُرديها إلى المهالك، وهي تتحرَّك دون مقاومةٍ أو شعورٍ بما ستؤول إليه.

تصويرُ الشّيطانِ براكبٍ يعتلي دابَّةً ليقودها إلى هلاكِها

معنى التَّعريف في لفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

جاء تعريف الشّيطان بأل العهديَّة، والعهد هنا علميٌّ حضوريٌّ؛ وذلك لأنَّه لم يسبق لهذا المُعرَّف بـ(أل) ذِكرٌ البتَّة لا صراحةً ولا كناية، ولكن لمّا ذكره يوسف ﷺ عَلِمَ الجميع أنَّه السّبب المباشر في وقوع الإفساد بين الإخوة، وأضاف يوسف ﷺ النَّزغَ إلى الشّيطان؛ لأنَّه سبب في الإفساد، هذا إلى جانب ما في هذه الإضافة من مزيد أدب ليوسف ﷺ، وذلك لأنَّه نسب الفعل كلّه للشّيطان، وبرَّأ ساحةَ إخوته، ونفى عنهم التُّهمة، وهذا أدب لا نظير له.

الشَّيطان عَلَمٌ على مَن يوسوسُ بقصدِ الإفسادِ والتَّفريق

دلالةُ استعمال البينيَّة:

قوله تعالى: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ من باب الإطناب لبيان قوَّة نزغ الشّيطان وما فعله من الإفساد بينهم جميعًا، وكان يمكن أن يكون التَّعبير (نزغ بيننا)، والمعنى تامٌّ كافٍ، إلّا أنَّ الأمر لمّا كان إنعامًا وتفضُّلًا وعدم تثريب وإلقاءِ تُهمٍ أعاد ذِكر البينيَّة مع إخوته عنوانًا للصَّفح والعفو، قال البقاعيُّ: "حيث قسم النّزغ بينه وبينهم ولم يُفضِّل أحدًا مِنَ الفريقيْن فيه، ولم يثبت الجارّ إشارةً إلى عموم الإفساد للبينيْن، كلّ ذلك إشارة إلى تحقّق ما بشّر به يعقوب ﷺ

النَّزغ كان بين فريقيْن، والنِّزاع صدر عن أحدِهما لا عن كليهما

من إتمام النّعمة وكمال العلم والحكمة"[1]، وفيه إشارةٌ عجيبةٌ إلى أنَّ النَّزغ وقع بين فريقيْن؛ أيْ إنَّه لم يكن شريكًا في النِّزاع مع إخوته، فهم الّذين استجابوا للنَّزغ فنازعوه، فهو فريقٌ وهم فريق، وجاء التَّعبير مشيرًا إلى هذه الحيثيَّة لدفعِ إدخالِ يوسف ﷺ في نزاعٍ لم يكن له فيه ناقةٌ ولا جَمَل.

فائدةُ إيثارِ الغَيْبةِ على الخطابِ:

من علامات الصَّفاء طيُّ صفحة الماضي

ذَكر الإخوة في قوله تعالى: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ إيماءٌ إلى تكريمهم، وطيٌّ صفحة الزّمن الماضي بما فيه، والخطابُ كان ليعقوب ﷺ، فأجرى الكلام على الغيبة، ولو كان لهم لكان على سبيل الخطاب، بأن يقول: "بيني وبينكم"، وحينها سيُلقي في أنفسهم الشَّكَّ والارتيابَ بأنَّ عفوه السّابق عنهم وطلبه مغفرة الله لهم كأن لم يكن، فأتى بالغيبةِ دون الخطابِ تطمينًا لهم وتأكيدًا أنَّه على عهده من العفو والمغفرة، وهذا من طيب نفسه وكرم سجاياه.

بلاغةُ الاستئنافِ الابتدائيِّ:

مردُّ الخيرِ كلِّه لله تعالى لطفًا وفضلًا

جملةُ ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا لقصد الاهتمام بها وتعليم مضمونها[2]، كما أنَّ هذه الجملة قد أفادت تعليلًا، فقد "علَّلَ الإحسانَ إليهم أجمعين بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾؛ أيْ: المحسن إليّ على وجوه فيها خفاء، ﴿لَطِيفٌ﴾؛ أيْ: يعلم دقائق المصالح وغوامضها، ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرّفق دون العنف، فإذا اجتمع الرّفق في الفعل واللّطف في الإدراك فهو اللّطيف"[3].

غرض التَّوكيد:

لطف الله تعالى لـلّـذي يـشاء ويُقَدِّر

جاء التَّوكيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ مُبيِّنًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/216.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/56.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/216.

لطف الله تعالى للَّذي يشاؤُه ويُقَدِّره، وقوله ﷻ ذلك بعد ما ذكر من تفضُّل الله عليه وعلى إخوته نزَّلهم - وهم لم يسألوه عن علَّة كلِّ ما سبق - منزلة مَن يسأل، فأكَّد لهم كلامه ببيان لطف الله تعالى بهم على السَّواء، ووردت جملة التَّأكيد مع ذِكر الرَّبّ وكونه ذا لطف، وهذا "تذييل قُصد به الثناء على الله تعالى بما هو أهله"[1].

بلاغةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

الإضمارُ والإظهار بحسبِ الأليق بالمقامِ لا باعتبار صنعةِ الكلام

ورَد ذِكرُ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ بعد أن ذكره سابقًا ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ﴾؛ لإظهار مزيدٍ مِنَ الامتنان والشُّكر لله تعالى، الَّذي تولّاه بالتَّربية والرِّعاية والحفظ، فهو المحسن إليَّ من جميع وجوه كرمه وعطفه.

على أنَّ النظم قد أضمر لفظ الرّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾، لكن لمّا قال: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ﴾ حسُن الإظهار، فلا يليق أن يأتي بعد ذِكر الشَّيطان ذِكر الرّبّ إضمارًا.

فائدة الإضافة:

اجتماعُ التَّعظيمِ للمُنعِمِ والتَّشريفِ للمُنعَمِ عليه

إضافة لفظ (رَبٌّ) إلى ضمير المُتكلِّم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ وردت للاختصار والإيجاز، إذ التَّقدير: الَّذي ربّاني، وهي هنا إضافة تعظيم للرَّب ﷻ، وتشريفٌ للمُضاف إليه وهو يوسف ﷺ، فأفادت الإضافةُ تعظيمَ المُضاف وتشريف المُضاف إليه.

بلاغةُ المناسبةِ في صفة ﴿لَطِيفٌ﴾:

عالِم الخفايا يُنجّيك من البلايا

اللّطيف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ﴾ بمعنى العالم بخفايا الأمور، المُدبّر لها، والمُسهِّل لصعابها، ولنفوذ مشيئته سبحانه، فإذا أراد شيئًا سهَّل أسبابه، ولذلك أُطلق عليه جلّ شأنه: اللّطيف؛

(1) طنطاويٌّ، التّفسير الوسيط: 7/417.

لأنّ ما يلطف يسهل نفوذه[1]، وناسب التّعبير بـ (اللّطيف) في هذا السّياقِ باعتبارِ حضور معنى الاستخراج، تنبيهًا على ما أوصل إليه يوسف حيث ألقاه إخوته في الجُبّ[2]، فأخرجه اللّطيف سبحانه من قعرِ البئر، ومن ظُلمة السّجن، ومن كيد النِّسوة، ومن غرور المُلك، وهذا لا يكون إلّا للأصفياءِ الأنقياء.

سرُّ التّعدية باللّام ﴿لَطِيفٌ لِّمَا﴾:

تضمين اللّطيف معنى المُدبِّر

أصل "اللّطيف" أن يتعدّى بالباء، وإنّما يتعدّى باللّام لتضمُّنه معنى مدبِّر، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾؛ أيْ: أنت لطيف مُدبِّر بمَنْ تشاء تدبيرَ أمرِه، وفيه معنى العناية والرّعاية، وحقيقته: اللُّطف الّذي يوصل الإحسان إلى غيره بالرّفق[3].

علّةُ الفصلِ في: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾:

اجتماعُ الحكمةِ التّامّةِ مع العلمِ المُطلقِ لله تعالى وحدَه

يحتمل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أن يكون مُستأنفًا استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ مثير لسؤال وهو: ما العلَّة في ذلك؟ أو لماذا يفعل ذلك؟ فجاء الرَّدّ والجواب بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ويحتمل أن يكون واقعًا موقع التَّعليل لما سبق، فوجب الفصل لكمال الاتِّصال لكونها تفسيرًا وبيانًا وتعليلًا، وهما من وادٍ واحدٍ عند الإمام عبد القاهر رحمه الله تعالى، إذ الأمر عنده إمّا الاتِّصال إلى الغاية أو الانفصال عنها.

غرض التَّوكيد:

توكيدٌ يبعث على الرّضا المُطلق

ورد التَّوكيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بـ (إنَّ) وضمير الشَّأن، وضمير الفصل، والتَّعريف للاهتمام بكونه ﷻ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/60.
(2) الرّاغب، المُفردات: (لطف).
(3) ابن عادل، اللُّباب: 11/218.

اللَّطيف، العليم، الحكيم، وجاء ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ في وسط الجملة المؤكَّدة تقويةً للوصف وتعظيمًا لشأنه ﷻ.

سرُّ اقتران صفتي ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾:

أفعال الله تعالى صادرةٌ عن علمٍ أحاطت به الحكمةُ

اقتران هاتَيْن الصِّفتَيْن ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يعطي العبد مزيدًا من الرّضا والارتياح؛ لأنَّه عندما يعلم أنَّ خالقه ومولاه لا يتصرَّف إلّا بعلم ولحكمة يقتضيها علمه سيوقن أنَّ العاقبة خيرٌ له وأنفع، فيسكن قلبه الرّضا وتغمره السَّكينة، فإنَّ أفعالَه صادرةٌ عن علمٍ، وعلمه مُحاطٌ بالحكمةِ، فهو العليم بمصالح عباده وأحوال خلقه علمًا تامًّا، والحكيم في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره ويريده، والعالم بمتصرِّفات الأمور لا يغيب عنه شيءٌ منها أبدًا، الحكيم الّذي يضع الأمور في نصابها بحكمته فلا يذهب عنه أصلها ولا فرعها؛ "أي: البليغ الإتقان لما يصنعه طبقَ ما ختم به يعقوب ﷺ بشراه في أوّل السّورة؛ أيّ هو منفرد بالاتّصاف بذلك لا يُدانيه أحدٌ في علمٍ ليتعرّض إلى إبطال ما يُقيمه من الأسباب، ولا في حكمة ليتوقّع الخلل في شيء منها"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

المأوى والمثوى:

المأوى مكانٌ ملحوظٌ فيه معنى الاجتماع، والمثوى يُطلقُ على المكان

دلَّ الإيواء على التَّجَمُّعِ، يُقالُ: أوَى الرَّجُلُ إلى مَنْزِلِهِ وآوَى غَيْرَهُ أويًّا وإيواءً. ويُقالُ: أوَى إواءً أيْضًا. والأويُّ أحْسَنُ. قالَ اللّه تَعالَى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف: 10]، وقالَ: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ [المؤمنون: 50]. والمَأْوَى: مَكانُ كُلِّ شَيْءٍ يُأْوَى إلَيْهِ لَيْلًا أوْ نَهارًا. وأوَتِ الإبِلُ إلى أهْلِها تَأْوِي أويًّا فهيَ آوِيَةٌ. قالَ الخَليلُ: التَّأوّي: التَّجَمُّعُ، يُقالُ:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/217.

تَأَوَّتِ الطَّيْرُ: إذا انْضَمَّ بَعْضُها إلى بَعْضٍ، وهُنَّ أوِيٌّ ومُتَأَوِّيات[1]، فالمأوى فيه إقامةٌ مع معنى الاجتماع.

ودلَّ المثوى على الإقامَةِ. يُقالُ: ثَوَى يَثْوِي فهوَ ثاوٍ، والثَّوِيَّةُ والثّايَةُ: مَأْوَى الغَنَمِ. والثَّوِيَّةُ: مَكانٌ. وأُمُّ مَثْوَى الرَّجُلِ: صاحِبَةُ مَنْزِلِهِ. والقياسُ كُلُّهُ واحِدٌ[2].

التَّأويل والتَّعبير:

تأويل الرؤى وقوعها فعلًا، وتعبيرها تفسيرها

تَأْويلُ الكَلامِ، عاقِبَتُهُ وما يَؤولُ إلَيْهِ، وذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف: 53]، يَقولُ: ما يَؤولُ إلَيْهِ في وقْتِ بَعْثِهِم ونُشورِهِمْ[3]، وتعبير الرُّؤْيا يَعْبُرُها عَبْرًا وعِبارَةً، ويُعَبِّرُها تَعْبيرًا، إذا فسَّرَها. ووَجْهُ القياسِ في هَذا؛ عُبورُ النَّهْرِ؛ لأنّه يَصيرُ من عِبْرٍ إلى عِبْرٍ. كَذَلِكَ مُفَسِّرُ الرُّؤْيا يَأْخُذُ بِها من وجْهٍ إلى وجْهٍ، كَأنْ يُسْأَلَ عَنِ الماءِ، فيَقول: حَياةٌ. ألا تَراهُ قَدْ عَبَرَ في هَذا من شَيْءٍ إلى شَيْءٍ[4].

الرّؤيا والحلم:

الرّؤيا حقًّا، والحلم ما كان تخليطًا

الرُّؤْيا: ما يُرى في المنام، وهو فُعْلى، وقد تُخفَّفُ فيه الهمزة فيُقال بالواو[5]، والرّؤيا تُطلق على ما يراه النّائم من الخير، والحُلم: ما يراه النّائم من الشّيطان، وقد استعمل القرآن الرّؤيا في الخير كما في رؤيا يوسف عليه السلام، واستعمل الحُلم فيما كان تخليطًا كما في قول الملأ: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف: 44]، على أنَّ الملك سمّاها رؤيا ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: 43].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أوى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثوى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أول).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبر).
(5) الرّاغب، المُفردات: (رأى).

النّزغ والوسوسة:

الوسوسة إغواءٌ متوقَّع، والنزغُ إغواءٌ واقع

النزغُ كَلِمَةٌ تَدُلُّ على إفْسادٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ. ونَزَغَ بَيْنَ القَوْمِ: أفْسَدَ ذاتَ بَيْنِهِمْ[1]، والوسوسة في أصلها ما يُقالُ لِصَوْتِ الحَلْيِ. وهَمْسُ الصّائِدِ وسْواسٌ. وإغْواءُ الشَّيْطانِ ابْنَ آدَمَ وسْواسٌ[2].

قال العسكريّ: النّزغ هو الإغواء بالوسوسة وأكثر ما يكون عند الغضب، وقيل أصله للإزعاج بالحركة إلى الشّر، ويُقال: هذه نزعة مِنَ الشّيطان للخصلة الدّاعية إلى الشّرّ، وأصل الوسوسة الصّوت الخفيّ، ومنه يُقال لصوت الحُلي: وسواس، وكل صوت لا يُفهم تفصيله لخفائه: وسوسة ووسواس، وكذلك ما وقع في النّفس خفيًّا[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزغ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وسَّ).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 537.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»